مقدمة

(١)

يضم هذا الكتاب أربعة أبحاث منفصلة نشرت على فترات زمنية متباعدة ويبرر جمعها معاً فى كتاب واحد أنها تحاول جميعاً إلقاء ضوء – مهما كان خافتا – على طبيعة العلاقة التى تقوم بين الأديب وبين واقعة، وأن تحدد بالتالى أثر هذه العلاقة على العمل الأدبى .

والأبحاث الأربعة – على هذه الصورة – تصبح مكملة لبحث آخر انتهيت من كتابته ويدور فى نفس المجال (١) ، ولأن هذه الأبحاث كتبت قبل البحث الذى أشرنا إليه فهى تقع منه موقع محاولات جس التربة قبل محاولة إقامة البناء .

ولا نريد أن يتوقع القارئ من هذه الأبحاث ، ولا من بحثنا الآخر، مايوحى به ذلك التشبيه الذى إنزلقنا إليه ، فكل مانحاوله وما حاولناه حتى الآن لايتعدى حدود الفروض، وطرح الأسئلة التى . تحتاج إلى كثير من الجهود الصابرة حتى تتحول إلى عمل متكامل ومقنع ، يمكن للقارئ أن يقبله أو يرفضه.

وتتخذ هذه البحوث من الأدب العربى الحديث مجالا لها ، ولأن هذه البحوث تحاول إختبار الأرض وإكتشافها : فإنها تعمد إلى إختيار بعض الأفكار التى تطرحها فى شكل دراسات تطبيقية ، على أعمال أدبية معينة لكاتب أو شاعر بعينه . وذلك لأنه ليس فى طاقتها ولا فى طاقة من يقدمها أن يقدم الإجابة المتكاملة على الأسئلة التى يطرحها فى هذا المجال وفى غيره من المجالات .

---

(١) البحث يحمل عنوان « الروائى والأرض » .

والفرض الأول الذى تطرحه هذه الأبحاث يتمثل فى أن الأديب يرتبط بالواقع الذى يعيشه بعلاقة إيجابية وديناميةٍ يتبادل فيها طرفى العلاقة التأثر والتأثير.

(٢)

ومبررات طرح هذا الفرض ، أن الأديب إنسان عادى يقوم بنشاط إنسانى ؛ ويسعى جاهدا لتقديمه إلى الإطار الإجتماعى الذى يعيش فيه ، وينتفى أن يكون نشاط الأديب نشاطا غير إنسانى ، أو فوق مستوى البشر ، لأن ذلك إذا كان صحيحا فإن معناه عجزنا الكامل عن التعامل مع الإنتاج الذى يقدمه مثل هذا الضرب من النشاط ، وإنقطاع كل صلة تربطنا به ، ومعناه أيضاً إمتناعنا عن محاولة الإستمتاع به أو فهمه أو تقييمه أو تحليله .

وإذا كان الأديب إنسانا عاديا كغيره من البشر ، فإن ميزته النوعية تتمثل فى أنه أكثر حساسية من الآخرين ، وهو بالتالى أكثر قابلية للانفعال والتوتر ، ولو اقتصرت ميزة الأديب على قابليته للانفعال ودرجة الحدة فى توتره فقط ، لأمكن أن يسوقه هذا الموقف إلى المرض العصبى والنفسى أو إلى الجنون ، ولكن الأديب يتميز من ناحية ثانية بالقدرة على ضبط هذا الإنفعال والسيطرة عليه ، نتيجة لذكائه الحاد الذى يقترن بشدة حساسيته وحدة إنفعاله ، ويمكننا بتعبير آخر أن نقول أن الأديب إنسان قادر على الوعى بانفعاله ، وهو لذلك قادر على ضبطه والسيطرة عليه . ولأن الأديب قادر على ضبط إنفعاله فهو لا يستسلم لردود الفعل المباشرة لهذا الإنفعال ؛ ولكنه يتأمل هذا الإنفعال ويقيس موقفه بمواقف الآخرين وتجاربهم ، سواء أكانت هذه التجارب مطروحة عليه فى إطار محيطه الإجتماعى ، أو من خلال ثقافته التى تطرح عليه تجارب الآخرين وخبرتهم ، وعلى هذه الصورة ، يتحول إنفعال الأديب إلى حس عميق ، وكلما عمق حس

الأديب كلما أصبح أكثر تحسسا لواقعه وللقوى التى تحرك هذا الواقع (١) .

ويمكننا على أساس تصورنا السابق أن نفترض أن العلاقة الإيجابية القائمة بين الأديب وإطاره الإجتماعى يمكن تصورها على النحو التالى .

أولا : أن الأديب يعيش بالضرورة فى مجتمع معين ، ولا يمكن لإنسان أن يعيش معلقا فى الفراغ خارج حدود الزمان والمكان ، ونحن نعرف أن كل مجتمع من المجتمعات ليس مجرد كتلة صماء جامدة ، ولكن كل مجتمع يعيش حركة نشيطة حية ومتطورة ، وتشمل هذه الحركة مجموعات من القوى المتصارعة والمتناقضة ، منها ما يحاول شد المجتمع إلى الخلف ومنها ما يحاول دفعه إلى الإمام ، ومنها مايرى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وتختلف المجتمعات فى مدى قدرتها على الوعى بوضعها وإرادتها فى التغيير وعوامل الوعى المتاحة لها ، والتناقضات التى تدفع بها إلى الثورة ، والقوى المضادة التى تعوق إرادة التغيير .

وفى المراحل الأولى من حياة كل فرد منا أديبا كان أو غير أديب ، يكون هذا الفرد فى مرحلة التلقى من إطاره الإجتماعى ، عجينة طرية قابلة للتشكيل ، مجرد مستقبل لكل مايطرحه عليه إطاره الإجتماعى من قيم . ويبدو المجتمع فى هذه الفتره المسئول الأول عن تشكيل نفسيات أفراده وتكوينهم ، وهو لاينقل إليهم مجرد قيمه التى يتعامل بها والتى تلخص تاريخه الحضارى ، ولكن ينقل إليهم أيضا تناقضاته ، بل ومدى إرادة التغيير فيه ودرجة وعيه .

ولا يستطيع كل فرد من أفراد الإطار الاجتماعى أن يكون تلخيصا لكل صورة الواقع الإجتماعى ، ولكنه يتقبل من هذه الصورة مايمنحه له إطاره الضيق الذى يعيش فيه ، ووضعه الطبقى ، ودرجة الإمكانيات المتاحة له ،

(١) تحدثنا عن هذه الفروض بصورة أكثر تفصيلا فى مقدمة كتاب « قروانى والارض ».

وعلى هذه الصورة ، يرث الفرد من مجتمعه قيمه التى يتعامل بها مع مجتمعه ، كما يرث فى الوقت نفسه إمكانيات و إرادة التغير فى هذا المجتمع .

ويظل الفرد العادى يعيش فى إطار القيم التى تلقاها من إطاره الإجتماعى ، أما الأديب الأكثر حساسية والأشد ذكاء ، فهو دائم الإنفعال والتوتر ، لايستطيع ولا يملك العيش فى هذا الهدوء المستسلم ، هو دائم التوتر والإنفعال ، ومعنى إنفعاله أنه دائم المراجعة لقيمه ، وأنه فى إحتكاكه بالآخرين يجد دائما مايسخطه ، وقد يجد ما يرضيه ، وهو فى مواجهة عالمه دائم الدهشة ، دائم الإكتشاف أن قيم مجتمعه لم تعد متماسكة إلى هذه الدرجة ، وما كان مسلما به أصبح موضع الشك ، وما كان صحيحا لم يعد كذلك ، ويستمر الأديب فى إنفعاله وفى تأمل هذا الإنفعال ، وفى مراجعة قيمه التى ورثها عن مجتمعه ، وفى مراجعة ردود فعله وردود فعل الآخرين ، وكلما تعاظمت درجة إنفعال الأديب ، وسيطرته على هذا الإنفعال ، وزادت إمكانيات وعيه بإنفعاله كلما تكشفت له القوى الفاعلة فى مجتمعه ، والتى تسبب له ولغيره كل هذا التوتر ، كما تتكشف له أيضا القوى التى يمكن أن تزيل مثل هذا التوتر الحاد الذى يشعر به ، أو تخفف منه على الأقل . وهو بكشفه عن هذه القوى يفتح الطريق إلى مستقبل أكثر إشراقا ، لأنه يدعونا ضمنا إلى إزاحة القوى التى تعوق حركة المجتمع ، وموازرة القوى التى تسعى إلى تغييره .

وهذا الموقف الذى ينشأ عن تكشف القوى الفاعلة فى المجتمع للأديب العميق الحس ، والذى يدفعه إلى الوقوف فى صف قوى التقدم و تمهيد لها ، يكشف فى نفس الوقت عما نسميه برؤية الأديب لواقعه ، وموقفه منه .

(٣)

وإذا كان الأديب عميق الإحساس بواقعه ، قادرا على الكشف عن القوى المتصارعة فى مجتمعه ، فمثل هذا الموقف ينفى بالضرورة عن رؤيته مجموعة من المظاهر التى لاتظهر فى رؤية الأدباء الكبار ، وإن ظهرت فى أعمال أدباء أقل أهمية وأدنى درجة .

فالأديب الكبير لا يمكن أن يصور لنا مجتمعا من المجتمعات فى حالة سكون وجمود ، كل شىء فيه على مايرام ، لأن مثل هذه الرؤية لا تقدم جديدا ، ولكنها تقدم عالما تقليديا مألوفا سبق أن تعرفنا عليه ، ولا جدوى من تقديمه الينا من جديد. ومثل هذه الرؤية تقدم لنا أعمالا أدبية تقليدية تعتمد على التكرار والتعميم ، وتفقد الحركة الدرامية النامية والحية ، وتقدم شخصيات متشابهة ومكررة ومجوفة ، وصورا ولغة مكررة ومحفوظة ، وإذا كان العالم فى رؤية الأديب ثابتا وكل شىء فيه على ما يرام فإن مثل هذا العالم لا يمكن أن يكون مصدرا للانفعال أو التوتر ، ولكنه على العكس عالم يستطيع الإنسان أن يهدأ فيه أو يسترخى ، ومثل هذا العالم يخلو من التناقضات والصراع ، وليس فيه بالضرورة مايستحق الإكتشاف أو الدهشة . عالم هرم ميت لا نبض فيه ولا خصوبة . ولا يقدم إلا عملا فنيا يتسم بنفس السمات .

والأديب العميق الحس لا يستطيع إلا أن يكتشف لتوتره وانفعاله أسباباً إنسانية مصدرها القوى الاجتماعية المتناقضة والمتصارعة ، وهو لا يستطيع فى هذه الحالة أن يرد أسباب الأحداث التى تقع له أو لغيره إلى قدر غامض يصب المصائب على فريق من البشر ، ويمنح الخيرات لفريق آخر ، وينتفى من عمله الفنى بالضرورة ، تفسير الفعل الإنسانى بالقدر أو المصادفة أو الحظ ، فهو مؤمن بالضرورة بالسببية ، وبأن المواقف الإنسانية ليست إلا ردود فعل لأفعال إنسانية .

والأديب الكبير لا يستطيع أن يتصور أنه وحده الذى يعانى فى مجتمعه ، وأنه وحده أيضاً قادر على أن يخلص نفسه من المعاناة ، أو أن أحداً مهما بلغت قيمته يستطيع أن يخلص البشر من المعاناة ، ولكنه يشعر أنه جزء من القوى المتصارعة فى مجتمعه ، وأن الصراع الاجتماعى قد انتقل إلى داخله ، وأنه يعانى كما يعانى غيره الصراع بين ما ورثه المجتمع وما أورثه لأفراده ، وبين إرادته وإرادة القوى التقدمية فى مجتمعه لتجاوز هذه المعوقات والتغلب عليها ، ليولد من تناقضات العالم القديم ، عالم جديد أكثر عدالة ورفاهية . والأديب

مؤهل أكثر من غيره للكشف عن القوى المتصارعة و تمهيد الطريق للتغير المنشود . وهو بمساهمته فى دفع عجلة التطور ، وإزالة العقبات من طريقها لا يساهم فى حل مشكلة المجتمع وحدها ولكنه يساهم أيضاً فى حل مشكلته الخاصة التى لا تحل جذرياً إلا بحل مشاكل الآخرين .

مثل هذه الرؤية لا تسمح للأديب أن ينغلق على عالمه الذاتى ، و يتصور أنه وحده القادر على أن يسمع و يرى فى عالم من الصم والبكم والعمى ، و أنه فريد بين البشر ؛ و أن ما يحدث له وحده — مهما كان تافهاً — هو الأصيل النادر الذى لا نظير له . مثل هذا التصور يحول بين الأديب وبين معرفة نفسه أو معرفة الآخرين ، وتفقد الأمور أحجامها الحقيقية . وهو مرشح فى مثل هذا الموقف إلى الصراخ بمشاكله الذاتية وحدها ، واعتبارها مدار الكون وسره ، دون مراعاة لمشاكل الآخرين وآلامهم وأحلامهم ، كما أنه فى مثل هذا الموقف مرشح لتبنى مشاكله الذاتية وحدها ، عاجز عن تخيل عالم الآخرين ، يقف موقف المدافع عن نفسه المبرر لها ، مصدراً صكوك البراءة لكل تصرفاته ، مخفياً صور ضعفه وتردده .

وهو ينتدب نفسه فى هذه الحالة للوقوف من الآخرين موقف الواعظ أو المرشد ، أو الخطيب . أو موقف المتهكم الساخر الذى يجسد للناس عيوبهم ، شامتاً بعالم الآخرين (الأعداء) ، مركزاً على مساوئهم أو ملغياً لإنسانيتهم كما يحلو له ؛ وقد يكون أكثر شفقة عليهم فيتقدم إليهم بحلول جاهزة وكاملة لكل مشاكل واقعهم ، وإذا لم يستطيعوا الاستجابة إلى مثل هذه الحلول الجاهزة ، لرتد عليهم من جديد متهماً لهم بالغباء والتحجر ، وربما يئس منهم كلية وتحول ليغنى يأسه وضياعه فى عالم الأغبياء المتحجر الذى يعيشه

(٤)

ويقودنا تصورنا للأديب كإنسان عميق الحس ، إلى أن كل عمل

أدبى رائع يفترض فيه أن يصدر عن رؤية متكاملة للواقع ، يرى فيها الأديب الواقع فى حركة حية نامية ومتطورة ، ويدرك أن حركة الواقع نابعة من القوى المتصارعة والمتناقضة على ساحته ، وأن سبب مايحدث للبشر كامن فى أسباب إنسانية ، وأن الأديب جزء من كل لا يمكنه مواجهة مشاكله وحلها جذرياً ، إلا بالتصدى للعوامل الاجتماعية المسئولة عن وقوعه ووقوع الآخرين فى هذه المشاكل ، قد يستطيع الأديب الهرب من مشاكله أو محاولة التظاهر بالاستعلاء عليها . ولكنه لايستطيع مواجهتها مواجهة حقيقية إلا بالكشف عن جذورها الاجتماعية .

ويسلمنا هذا الافتراض إلى افتراض آخر هو : أن كل عمل أدبى رائع لابد أن يكون بالضرورة تقدميا بالنسبة لعصره ، لأن الأديب الذى يستطيع بعمق حساسيته الكشف عن القوى المتصارعة فى مجتمعه لا يمكنه إلا أن ينحاز لقوى التقدم فى هذا المجتمع ، ويقاس معنى التقدم فى كل مجتمع وفق مواصفاته الخاصة ولا يقاس بالنسبة لعصرنا ، الذى يفترض أن تكون مناهج الكشف فيه عن قوى المجتمع المتصارعة أكثر تقدماً وموضوعية .

ولا يعنى الإنحياز لقوى التقدم فى هذا المجال التقليل من دور القوى المعوقة فى المجتمع أو إلغائها ، وتضخيم قوى التقدم فيه أو التبشير بها ، لأن مثل هذا الموقف بالإضافة إلى كونه يمثل تزييفا متعمدا من الأديب ، يؤدى إلى الوقوع فى التفاؤل الأبله الذى يقود إلى منزلقات خطرة ، ترتد آثارها السلبية على العمل الأدبى وعلى قوى التقدم معا .

والأدب الذى يصدر عن أديب عميق الحس ليس بالضرورة تقدميا فقط ولكنه إنسانى ايضا ، فإن تأمل الأديب الواعى فى معركة مجتمعه يقوده إلى تصور هذه المعركة كحلقة من حلقات السلسلة الطويلة لمعركة الإنسان فى كل زمان ومكان ، وسعيه الدائب من أجل حياة أكثر أمنا وعدالة ورفاهية .

ويمكننا فى النهاية أن نزعم بأن أى عمل أدبى ينبغى أن يكون واقعيا ،

بمعنى من المعانى ، وأن هذا الحكم قد تحقق بصورة من الصور فى أعمال الأدباء العظام فى كل العصور ، ورغم أن بعض المذاهب الأدبية قد طرحت مفهوما قد يخالف هذا المفهوم ، إلا أن مفاهيمها لاتتمثل بصورة كاملة فى أعمال كبار الأدباء ، بقدر ما تتمثل فى أعمال أدباء الدرجة الثانية أو الثالثة .

(٥)

ويطمح الباحث إلى أن يكون البحث الأول الذى ينشر فى هذا الكتاب وبقية الأبحاث الأخرى ، قد استطاعت أولا : إلقاء بعض الضوء على طبيعة العلاقة التى تقوم بين الأديب وبين واقعه .

وأن تكون قد استطاعت ثانيا : إلقاء بعض الضوء على أهم العقبات التى تحول بين بعض أدبائنا العرب المحدثين وبين الإحساس العميق بواقعهم والتى تتمثل فى مجموعة من العوامل من أهمها :

أن المجتمع العربى فى محاولته اللحاق بركب الحضارة الإنسانية ، وتعويض مافاته فى مراحل تخلفه ، يحاول اختصار أكثر من مرحلة حضارية فى مرحلة واحدة ، ولذلك تتداخل وتتراكم فى قيمه وثقافته ومظاهر سلوكه بعض العلاقات التابعة من مجتمع شبه إقطاعى ، مع قيم نابعة من مجتمع بورجوازى لم يستطع تحقيق ثورته بعد ، مع قيم نابعة من مرحلة التحول الإشتراكى التى يحاول المجتمع تحقيقها وتجاوزها ، ولايستطيع تجاوز كل هذه المراحل والتخلص من الإضطراب الذى تحدثه إلا أقلية ضئيلة ، ويظل أغلبنا مشدودا إلى قيم مرحلة من المراحل التى يفترض أن يكون المجتمع قد تجاوزها ، مما يحول بين الأديب وبين تبين طبيعة القوى المتصارعة فى مجتمعه أو تحديد موقفه منها ، ويجعل بعض أدبنا يبدو وكأن صاحبه لارؤية له ، أو أن رؤياه ضبابية وغائمة ومسطحة إلى حد كبير . ولعل

هذا هو سر الشكوى من كون أغلب أدبنا العربى لايساهم فى الأحداث ولايكشف إمكانية وقوعها ، ولكنه يكتفى بتسجيلها بعد أن تقع ، وتفاجئ الأديب الأحداث وتزلزله كما يحدث لأى فرد من المواطنين العاديين .

كما يعد موقف أديبنا العربى من الثقافة الأجنبية المتفوقة مسئولا عن عجزه عن الإحساس العميق بواقعه ، فهو لايتقدم من هذه الثقافة من موقف من يريد إستخدام خبرتها ومناهجها كعوامل لإخصاب تجربته ، تمنحه قدرة أكبر على تحليل واقعه ، ولكنه يتقدم منها من موقف الخاضع والمستسلم الذى يرغب فى تبنيها تبنيا كاملا . والثقافة الأجنبية مهما كانت متفوقة فهى لاتعدو كونها حصيلة جهود مثقفين عاشوا فى إطار اجتماعى معين ، له مشاكله الخاصة ، وحاول هؤلاء المثقفون تقديم نتيجة جهدهم فى محاولة حل مشاكل واقعهم .

والمثقف والأديب العربى مدعو للإستفادة من تجاربهم ومحاولاتهم ومناهجهم ، ولكنه لايستطيع الإستسلام لثقافتهم وتبنيها ، وإلا لكان معنى ذلك أن يتصور تطابق المشاكل فى مجتمعه مع مشاكل مجتمع آخر تطابقا كاملا . ولأن كل حصيلة الفكر الأوربى معروضة أمام مثقفينا وأدبائنا ، فإن كل واحد منهم يختار من هذه الثقافة مايحلو له ويريحه ، ومادام فكره وأدبه لاينبع من معاناة حقيقية لواقعه ، ولكنه مستمد من حلول جاهزة لواقع آخر ، فهو يستطيع أن يفرض علينا رؤية أى مذهب أدبى غربى يريده ، ويمكنه أن يدعى بأنه وجودى أو عبثى كما يحلو له ، كما يمكنه أن يكون خليطاً من ذلك كله إذا أراد . وعلى مجتمعنا أن يستجيب لهذه الحلول المثالية والجاهزة والمختلطة وإلا حكم عليه بالغباء والتخلف .

والباحث يأمل فى النهاية أن يكون قد استطاع أن يحقق الربط بين رؤية الأديب وبين محتوى عمله الفنى وبين أدوات التعبير التى اختارها

الأديب أو الفنان . وأن يكون قد استطاع الإشارة إلى أن ضبابيه الرؤية أو تسطحها أو فرضها يمكن أن تترك أثرها على محتوى الفن، وبالتالى على أدوات تعبيره .

(٦)

وبعد فينبغى لنا أن نقرر من جديد أن هذه الأبحاث تطرح فروضا وأسئلة أكثر مما تطرح إجابات . وإذا أفلحت هذه الأبحاث فى التنبيه إلى أن بعض ماتثيره من مشاكل يستحق الإهتمام فإنها تكون قد حققت مايراد منها ، ومن حق كاتبها أن يلاحظ عليها أنها تقرر ماتريد بأسلوب بيان مالاتريد ، وكان ينبغى على الباحث أن يقدم مجموعة من الأعمال الأكثر إيجابية والتى تساعد على رؤية الوجه الآخر للعملة ، وهو ما يعد الباحث بتقديمه فى أقرب فرصة ، كما لايسعنا فى النهاية سوى أن نعتذر للقارىء اذا لاحظ تكرار بعض الأفكار فى هذه الأبحاث ، وهو أمر لايمكن تفادى الوقوع فيه عند كتابة أبحاث منفصلة ثم محاولة جمعها بعد ذلك فى كتاب .